تأليف أبي عبد الله

فيصل بن عبده قائد الحاشدي

حفظه الله

الابتلاء

السنة الباقية

دار القمة
الإسكندرية

دار الإيمان
الإسكندرية

CamScanner

الابتلاء

السنة الباقية

تأليف أبي عبد الله
فيصل بن عبده قائد الحاشدي
عفا الله عنه

دار الإيمان
الإسكندرية

دار القمة
الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: الابتلاء السنة الباقية
تأليف فضيلة الشيخ : فيصل الحاشدي
رقم الإيداع: ٩٨٨٣ / ٢٠٢١.
نوع الطباعة: لون واحد.
عدد الصفحات: ٢٢٤ .
القياس: ١٧X٢٤.

جميع الحقوق محفوظة

تجهيزات فنية:
مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية
أعمال فنية وتصميم الغلاف أ / عادل السلماني .

٢٠٢١

الإدارة
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

المبيعات
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٩٩٢٠٠٣

E-mail dar_aleman@hotmail.com

فرعنا في الجمهورية اليمنية
دار الإيمان المتحدة
أمام مستشفى الصوفي - أسفل مدارس اليمن الحديثة
مقابل بنك سبأ - شارع وداع - محافظة ذمار
جوال: ٧٧٥٣٠٩٩٣٥

ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمةُ

الحمدُ لِلَّهِ ربِّ العالمين والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ المرسَلين وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين.

أما بعدُ:

وخيرٌ من القولِ المقدَّمِ فاعرَفْ نتيجتُهُ والنحلُ يُكْرَمُ للشَّهْدِ(١)

فمِنْ سُنَنِ اللهِ التي لا تَتبدَّلُ ولا تتخلَّفُ أنَّ الابتلاءَ سنةٌ مقدرةٌ على العبادِ إلى يومِ الميعادِ، فلا مَرَدَّ لها، ولا سبيلَ إلى إيقافِها: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣]. فالابتلاءُ من مقاصِدِ الخَلْقِ: والبلاءُ في عَصرِنَا أشدُّ مِنْ ذي قَبْلُ، قال ابْنُ بَازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّ هَذَا الْعَصرَ شَدِيدُ الغُرْبَةِ، شَدِيدُ الاخْتلاطِ، شَدِيدُ الْبَلاءِ، إلا مَن عَصَمَ اللهُ وَوَفَّقَهُ»(٢) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وما من إنسانٍ إلَّا وقد ابْتُلِيَ بنوعٍ من أنواعِ البلاءِ ما بين مُعَجَّلٍ ومُؤَجَّلٍ.

المرءُ رَهْنُ مصائبٍ لا تنقضي حتى يُوَسَّدَ جِسْمُهُ في رَمْسِهِ

فمؤجَّلٌ يلقى الرَّدَى في غيرِهِ ومعجلٌ يلقى الرَّدَى في نفسِهِ(٣)

---

(١) «أبو الطيِّب ما لَهُ وَمَا عَلَيْهِ» (٥١).

(٢) «مجموعُ فتاويه» (٢٣/ ١٩٢)

(٣) ديوانُ أبي فِراسٍ (٢٠٨).

CamScanner ضوئيا بـ

وإنِّي لمَّا رأيتُ الجَهلَ عند كثيرٍ من الناسِ بحقيقةِ الابتلاءِ وبُعْدَهم عن آدابِهِ شَرَعتُ في كتابةِ رسالتي هذهِ وسمَّيتها «الابتلاءُ السُّنَّةُ الباقِيَةُ».

ورَجَوْتُ أنْ تَسُدَّ الخلَلَ وتُكمِلَ النقصَ: «ولَنْ تَعْدِمَ الحسناءُ ذامًّا».

فإلىٰ محتويات الرسالةِ جعلها اللهُ نافعةً مباركةً وكَتَبَ لها القبولَ وما ذلك علىٰ اللهِ بعزيزٍ وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

وكتبهُ

فيصلُ الحاشديُّ

٢ رمضان سنة ١٤٣٩هـ

تم المسح ضوئيا بـ CamScanner

تعريفُ الابتلاءِ

تَسَامَى عَنِ التعرِيفِ فِي شِعْرِ نَاظِمٍ   إليهِ انتهتْ آمالُ كلِّ مُؤمّلِ[(١)]

أ - من الناحيةِ اللُّغويةِ:

قال ابنُ فارسٍ:

بُلِيَ الإِنْسَانُ وَابْتُلِيَ، وَهَذَا مِنَ الامْتِحَانِ، وَهُوَ الاخْتِبَارُ. وَقَالَ:

بُلِيتُ وَفُقْدَانُ الحَبِيبِ بَلِيَّةٌ   وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ يُبْتَلَى ثُمَّ يَصْبِرُ

وَقَالَ الجَعْدِيُّ فِي البَلَاءِ إِنَّهُ الاخْتِبَارُ:

كَفَانِي البَلَاءُ وَإِنِّي امْرُؤٌ   إِذَا مَا تَبَيَّنْتُ لَمْ أَرْتَبِ[(٢)]

ب - من النّاحية الشّرعيّة:

النَّاظِرُ في المداركِ الشَّرعيَّةِ يجدُ أنَّ الابتلاءَ لم يَخْرُجْ في المفهومِ الشَّرعيِّ عن المعنى اللغويِّ من الاختبارِ والامتحانِ، فمِنْ ذلكَ قولُ اللهِ - تعالى -: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال ابنُ جريرٍ: وإذ اختبرَ[(٣)]، وقال القرطبيُّ: الامتحانُ والاختبارُ[(٤)].

ومن ذلكَ قولُهُ - سبحانَهُ -: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم

(١) دواوينُ الشِّعرِ العربي (٨٧/ ١٨٢).

(٢) مقاييسُ اللُّغةِ (١/ ٢٩٣ - ٢٩٤).

(٣) البيانُ (١ - ٥٧١).

(٤) أحكامُ القرآنِ (٢ - ٩٣).

ضوئيا بـ CamScanner

يَخْسَرُ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وقال - سبحانه -: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [النساء: ٦]؛ قال السعديُّ رَحِمَهُ اللهُ: الابتلاء: هو الاختبار والامتحان[١].

وقال - جلَّ ذِكرُهُ -: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦٨]، قال ابنُ جرير رَحِمَهُ اللهُ: «واختبرْناهم بالرَّخاءِ في العيشِ والخَفْضِ في الدُّنيا والدَّعَةِ والسَّعَةِ في الرِّزقِ، وهي (الحسناتُ) الَّتي ذكرَها - جلَّ ثناؤُهُ - ويعني بـ (السيئات) الشِّدَّةَ في العيشِ والشَّظَفَ فيه، والمصائبَ والرَّزايا في الأموالِ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ يقول: ليرجعوا إلى طاعةِ ربِّهم، ويُنيبوا إليه، ويتوبُوا من معاصيه»[٢].

ولكنْ ليس من صريحِ الابتلاءِ - أي: الاختبارِ - قولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣]؛ لأنَّه هنا بمعنى العُقُوبة، وقد يُستشعَرُ منه ذلك المعنى أيضًا، ولو حُمِلَ على الاختبارِ والامتحانِ؛ لأنَّهُ - تعالى - اختبرَهم بما يعلَمُ أنَّهم لَنْ يستقيموا فيه على أمرِ اللهِ تعالى، فهو في حقيقتِهِ عقوبةٌ وإنْ كانَ ظاهرُهُ الاختبارَ والامتحانَ، وعلَّلَ اللهُ - تعالى - ذلك بفِسْقِهِمْ وخروجِهم عن الطاعةِ.

وأمَّا من السُّنَّةِ، فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: دخلَتْ امرأةٌ معها ابنتانِ لها تسألُ، فلم تجدْ عندي شيئًا غيرَ تمرةٍ، فأعطيتُها إيَّاها، فقسمَتْها بين ابنتيها ولم تأكُلْ منها، ثم قامَتْ فخرجَتْ، فدخلَ النبيُّ ﷺ علينا فأخبرتُهُ، فقال: «مَن ابتُلِيَ من هذه البناتِ بشيءٍ كُنَّ لهُ سِترًا من النَّارِ»[٣].

---

(١) تفسير السَّعدي (١ - ١٦٤).

(٢) البيان (٦ - ٣٧).

(٣) رواه البخاري (١٣٥٢).

صوّرت بـ CamScanner

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنَّ الله قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر، عوَّضتُه منهما الجنَّة»[1].

الفرقُ بينَ الابتلاءِ والاختبارِ:

ولا فَــرقَ فيهــا بــين عــزمٍ وصــارمٍ ... كــأنَّ الظُّبى فيها طُــبِعْنَ مِــنَ العَزمِ[2]

الابتلاءُ لا يكونُ إلَّا بتحمُّلِ المكارهِ والمشاقِّ، والاختبارُ يكونُ بذلك وبفعلِ المحبوبِ ألا ترى أنْ يُقالَ اختبرهُ بالإنعامِ عليه، ولا يُقالُ ابتلاهُ بذلك ولا هو مُبتلًى بالنعمةِ[3].

---

(١) رواه البخاري (٥٦٥٣).

(٢) «ديوان ابن الخياط» (٢٤٦).

(٣) «الفروق اللغوية» (٢١٦).

أنواعُ الابتلاء

وما هُوَ إلّا حادِثٌ بعد حادِثٍ ... فمِنْ أيِّ أنواعِ الحوادِثِ تجْزَعُ[(١)]

الابتلاءُ أنواعٌ كثيرةٌ أقتصرُ على ذكرِ أهمِّها:

١ - الابتلاءُ التَّكْليفيُّ:

ويُعْرَفُ هذا الابتلاءُ بالتَّكْليفِ وحَمْلِ الأمانةِ أيِّ أمانةٍ كانت ابتداءً من أمانةِ الأهلِ والأولادِ وانتهاءً بالإمارةِ أو الحكمِ فكُلُّ راعٍ مسؤولٌ عمَّا استرعاهُ أحَفِظَ ذلك أمْ ضيَّعَ.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

٢ - الابتلاءُ الشَّخصيُّ:

وليلٍ بِتُّهُ رهْنَ اكتئابٍ ... أقاسي فيه أنواعَ العذابِ[(٢)]

وهو ما يصيبُ الإنسانَ في نفسِهِ أو مالِهِ أو ولَدِهِ أو أحدٍ من أفرادِ أسْرتِهِ.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

٣ - الابتلاءُ الاجتماعيُّ:

وَدُوا على حِفْظِ الودادِ فطالما ... بُلينا بأقوامٍ إذا حَفِظوا خانوا[(٣)]

---

(١) ديوانُ أبي العتاهية (٩٨).

(٢) ديوانُ أبي منصورٍ الثعالبي (١٨).

(٣) ديوانُ ابنِ حَيُّوس (٦٣٦).

وهو ابتلاءُ الناسِ بعضِهم ببعضٍ فيَظْهَرُ به عدوانُ الظالمين وطغيانُهم، وصَبْرُ الصابرين وتحمُّلُهم قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وهذا الابتلاءُ لا ينجو منه أحدٌ حتى الأنبياءُ - عليهم الصلاةُ والسلامُ - قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٠].

ولقد أحسن الذي يقول:

إذا امتحنَ الدُّنيا لبيبٌ تكشَّفتْ ... لَهُ عن عدوٍّ في ثيابِ صديقِ(١)

٤ - الابتلاءُ الجماعيُّ:

لَعَمْرُكَ ما تَدري الضَّوارِبُ بالحصَى ... ولا زاجِراتُ الطَّيرِ ما اللهُ صانِعُ(٢)

وهو ابتلاءٌ يُصيبُ الأُمَّةَ أو الجماعةَ بأسرِها من رَغَدِ العيشِ أو ضيقِه، من اعتدالِ المُناخِ أو قسوتِه، أو شحَّةِ الأمطارِ ونُضُوبِ مياهِ الآبارِ أو الزَّلازلِ والبراكينِ أو الفيضاناتِ والأعاصيرِ أو الطاعونِ والأمراضِ غيرِ المعروفةِ وما أشبهَ ذلكَ من الابتلاءاتِ التي لا يَقْتَصِرُ أثرُها على فردٍ دُونَ آخرَ أو جماعةٍ دُونَ سِواها.

ومن أسبابِ ظهورِ هذا الابتلاءِ ما يقترفُهُ الناسُ من المعاصي وما يرتكبونَهُ من الآثامِ.

---

(١) الآداب النافعة (٣٠).

(٢) ديوان لبيد (٥٧).

CamScanner صوريا بـ

قال الله ﷻ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

أي أنَّ الله ﷻ يَبتليهم بنقصِ الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ اختبارًا منه لهم ومجازاةً على صنيعِهم لعلَّهم يرجعون عن المعاصي»[1].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: كنتُ عاشِرَ عَشَرةِ رَهْطٍ من المهاجرين عند رسولِ اللهِ ﷺ فأقبلَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ بوجهِهِ فقال: «يا مَعْشَرَ المهاجرين، خمسُ خصالٍ أعوذُ باللهِ أن تُدْرِكوهُنَّ: ما ظَهَرَت الفاحشةُ في قومٍ حتى أعلَنُوا بها إلا ابْتُلوا بالطَّواعينِ والأوجاعِ التي لم تَكُنْ في أسلافِهم الذين مَضَوا، ولا نَقَصَ قومٌ المكيالَ والميزانَ إلا ابْتُلوا بالسِّنين وشِدَّةِ المؤونةِ وجَوْرِ السُّلطانِ، وما مَنَعَ قومٌ زكاةَ أموالِهم إلا مُنِعُوا القَطْرَ من السَّماءِ فلولا البهائمُ لم يُمْطَروا، ولا خَفَرَ قومٌ العَهْدَ إلا سلَّطَ اللهُ عليهم عدوًّا من غيرِهم فأَخَذوا ما في أيديهم، وما لَمْ يَعمَلْ أئمَّتُهم بما أنزَلَ اللهُ ﷻ في كتابِهِ إلا جَعَلَ اللهُ بأسَهُم بينَهُم»[2][3].

إذا مـا الـدَّهْرُ جَـرَّ علـى أُنـاسٍ كلاكِلَـهُ أنـاخَ بآخرينـا
فقُـلْ للشَّامتين بنـا أفيقـوا سيلقى الشَّامتون كمـا لقينـا[4]

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٤٤).

(٢) (صحيح) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ١٣٢١).

(٣) انظر «الفترة الثمين» (١/ ٩ - ١٢) بتصرف.

(٤) «الأداب النافعة» (٣٠).

فقه الابتلاء

١ - أنواعُ البلاءِ:

في كُلِّ بلوى تُصيبُ المرءَ عافيةٌ   إلا البلاءَ الذي يُدني من النارِ(١)

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

قال السعدي رحمه الله:

أخبرَ تعالى أنهُ لا بدَّ أن يَبتلِي عبادَهُ بالمِحَنِ، ليَتبيَّنَ الصادقُ من الكاذبِ، والجازعُ من الصابرِ، وهذهِ سنَّتُهُ تعالى في عبادِهِ؛ لأنَّ السَّرَّاءَ لو استمرَّتْ لأهلِ الإيمانِ، ولم يَحصُلْ معها مِحنةٌ، لَحَصَلَ الاختلاطُ الذي هو فَسادٌ، وحكمةُ اللهِ تقتضي تمييزَ أهلِ الخيرِ من أهلِ الشرِّ. هذه فائدةُ المِحَنِ، لا إزالةَ ما مع المؤمنين من الإيمانِ، ولا رَدُّهم عن دينِهم، فما كان اللهُ ليُضيعَ إيمانَ المؤمنين، فأخبرَ في هذه الآيةِ أنه سيبتلي عبادَهُ ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ من الأعداءِ ﴿وَالْجُوعِ﴾ أي: بشيءٍ يسيرٍ منهما؛ لأنَّهُ لو ابتلاهم بالخوفِ كُلِّهِ، أو الجوعِ، لَهلكوا، والمِحَنُ تُمحِّصُ لا تُهلِكُ.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ وهذا يَشمَلُ جميعَ النَّقصِ المعتري للأموالِ من جوائحَ سماويةٍ، وغَرَقٍ، وضَياعٍ، وأخذِ الظَّلَمةِ للأموالِ من الملوكِ الظَّلَمةِ، وقُطَّاعِ الطريقِ وغيرِ ذلك.

---

(١) الأماني في لغة العرب (٢/ ٩٦).

صوريا بـ CamScanner

﴿وَالْأَنفُسِ﴾ أي: ذهابُ الأحبابِ من الأولادِ، والأقاربِ، والأصحابِ، ومن أنواعِ الأمراضِ في بَدَنِ العبدِ، أو بَدَنِ من يُحِبُّهُ، ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أي: الحبوبُ، وثمارُ النخيلِ، والأشجارِ كُلِّها، والخَضِرُ ببَرَدٍ، أو بَرْدٍ، أو حَرْقٍ، أو آفةٍ سماويةٍ، من جرادٍ ونحوِهِ. فهذه الأمورُ، لا بُدَّ أنْ تَقَعَ، لأنَّ العليمَ الخبيرَ، أَخْبَرَ بها، فوَقَعَتْ كما أَخْبَرَ، فإذا وقعتْ انقسَمَ الناسُ قِسمين: جازِعينَ وصابِرين، فالجازِعُ، حَصَلَتْ له المصيبتانِ، فواتُ المحبوبِ، وهو وجودُ هذه المصيبةِ، وفواتُ ما هو أعظَمُ منها، وهو الأجْرُ بامتثالِ أمرِ اللهِ بالصَّبْرِ، ففازَ بالخسارةِ والحرمانِ، ونَقَصَ ما معهُ من الإيمانِ، وفاتَهُ الصَّبْرُ والرِّضا والشُّكرانُ، وحَصَلَ [لَهُ] السَّخَطُ الدَّالُّ على شِدَّةِ النُّقصانِ.

وأمَّا من وَفَّقَهُ اللهُ لِلصَّبْرِ عند وجودِ هذه المصائبِ، فحَبَسَ نَفْسَهُ عن التَّسَخُّطِ، قولًا وفعلًا واحْتَسَبَ أجْرَها عند اللهِ، وعَلِمَ أنَّ ما يُدْرِكُهُ من الأجْرِ بصَبْرِهِ أعظمُ من المصيبةِ التي حَصَلَتْ له، بل المصيبةُ تكونُ نعمةً في حَقِّهِ، لأنَّها صارتْ طريقًا لِحُصولِ ما هو خيرٌ له وأَنْفَعُ منها، فقد امْتَثَلَ أمْرَ اللهِ، وفازَ بالثوابِ، فلهذا قالَ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ أي: بَشِّرْهم بأنَّهم يُوَفَّوْنَ أجْرَهم بغيرِ حسابٍ.

فالصابرون، هم الذين فازوا بالبِشارةِ العظيمةِ، والمِنحةِ الجَسيمةِ، ثُمَّ وَصَفَهم بقولِهِ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ وهي كُلُّ ما يؤلِمُ القَلْبَ أو البَدَنَ أو كِلَيهما مما تقدمَ ذِكْرُهُ.

﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: مملوكون للهِ، مُدَبَّرون تحتَ أمرِهِ وتصريفِهِ، فليس لنا من أنفُسِنا وأموالِنا شيءٌ، فإذا ابتلانا بشيءٍ منها، فقد تَصَرَّفَ أرْحَمُ الراحمين، بمماليكِهِ وأموالِهِم، فلا اعتراضَ عليه، بل من كمالِ عبوديَّةِ العَبْدِ، عِلْمُهُ، بأنَّ وقوعَ البليةِ من المالِكِ الحكيمِ، الذي هو أرْحَمُ بعبدِهِ من نفسِهِ، فيوجِبُ له ذلك، الرِّضا عن اللهِ،

CamScanner ضوئيا بـ

والشُّكْرُ له على تدبيرِه، لما هو خيرٌ لعبيدِه، وإنْ لم يَشْعُرْ بذلك، ومع أننا مملوكون لله، فإنَّا إليهِ راجعون يومَ المَعَادِ، فمجازٍ كُلَّ عاملٍ بعملِه، فإنْ صَبَرْنا واحتَسَبْنا وَجَدْنا أَجْرَنا موفورًا عنده، وإنْ جَزِعْنا وسَخِطْنا، لم يكُنْ حظُّنا إلا السُّخْطَ وفواتَ الأَجْرِ، فكَونُ العَبْدِ للهِ، وراجعًا إليه، من أقوى أسبابِ الصَّبْرِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفونَ بالصبرِ المذكورِ ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ثناءٌ وتنويهٌ بحالِهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمةٌ، ومن رحمتِه إيّاهم، أنْ وفَّقهم للصَّبْرِ الذي ينالون به كمالَ الأجرِ، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾ الذين عرفوا الحقَّ، وهو في هذا الموضعِ، عِلْمُهُم بأنَّهم للهِ، وأنَّهم إليه راجعون، وعَمِلوا به وهو هنا صَبْرُهم للهِ.

ودلَّتْ هذه الآيةُ، على أنَّ مَنْ لم يَصْبِرْ فلهُ ضِدُّ ما لَهم، فحَصَلَ له الذَّمُّ من اللهِ، والعقوبةُ، والضَّلالُ والخَسَارُ، فما أعظَمَ الفَرْقَ بين الفريقينِ وما أقَلَّ تعَبَ الصابرين، وأعظَمَ عناءَ الجازعين، فقد اشتملَتْ هاتانِ الآيتانِ على تَوْطينِ النفوسِ على المصائبِ قبلَ وقوعِها، لِتَخِفَّ وتَسْهُلَ، إذا وقعتْ، وبيانِ ما تُقَابَلُ بِهِ، إذا وَقَعَتْ، وهو الصَّبْرُ، وبيانِ ما يُعِينُ على الصبرِ، وما للصابرِ من الأَجْرِ، ويُعْلَمُ حالُ غيرِ الصابرِ، بضِدِّ حالِ الصابرِ.

وأنَّ هذا الابتلاءَ والامتحانَ، سُنَّةُ اللهِ التي قد خَلَتْ، ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تبديلًا وبيانُ أنواعِ المصائبِ[1].

مـــــا للعبيـــــد مـــــن الـــــذي يقـــــضي بـــــه اللهُ امتنـــــاعُ
ذُقْتُ الأُمـــــورَ غــــيرَ الفـــــرا تِ لـــمْ تُفَرِّطْـــي الـــضِّبَاعُ[2]

---

(١) تفسير السعدي - (١/ ٧٥).

(٢) ديوان أبي فراس (٢٩٦).

صوريا بـ CamScanner

٢- أقسامُ الناسِ في البلاء:

ثلاثة أقسامٍ حتى نقسّمَ بها ... طالبٌ يسعدُ ويرغدُ ويتعبُ(١)

الناسُ حينَ نزولِ البلاءِ ثلاثةُ أقسامٍ:

الأوّلُ: محرومٌ من الخيرِ يُقابلُ البلاءَ بالتَّسخُّطِ وسوءِ الظنِّ باللهِ واتِّهامِ القَدَرِ.

الثاني: مُوَفَّقٌ يقابلُ البلاءَ بالصَّبرِ وحُسنِ الظنِّ باللهِ.

الثالثُ: راضٍ يقابلُ البلاءَ بالرِّضا والشُّكرِ وهو أمرٌ زائدٌ على الصَّبرِ.

نحنُ إنْ زرتنا ونصرٌ ومصائبُ ... ولا يغلُّ ما ألحَّتْ علينا يدُ الدهرِ

لقد عركتنا للزمانِ مُلِمَّةٌ ... ألمَّتْ بمحمودِ الجلادةِ والصبرِ(٢)

٣- مراتبُ الناسِ في البلاء

للناسِ في محنِ الزمانِ مراتبٌ ... ولكلِّهم فيها نصيبٌ راتبُ(٣)

الناسُ في البلاءِ على مراتبَ أربعٍ:

المرتبةُ الأولى: التَّسخُّطُ، وهو على أنواعٍ:

النوعُ الأوّلُ: أنْ يكونَ بالقلبِ، كأنْ يتسخَّطَ على رَبِّه يغتاظُ ممّا قدَّرَه اللهُ عليه، فهذا حرامٌ وقد يؤدِّي إلى الكفرِ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

---

(١) ديوان كشاجم (٣٣).

(٢) التذكرة الحمدونية (٨/ ٢٨٨).

(٣) تتمة اليتيمة (٦/ ٣٤٣).

صوّرتها بـ CamScanner

النوعُ الثاني: أن يكونَ التَّسخُّطُ باللِّسانِ، كالدُّعاءِ بالوَيْلِ والثُّبُورِ وما أشْبَهَ ذلكَ، وهذا حرامٌ.

النوعُ الثالثُ: أنْ يكونَ التَّسخُّطُ بالجوارحِ، كلَطْمِ الخُدودِ وشَقِّ الجُيُوبِ ونَتْفِ الشُّعورِ وما أشْبَهَ ذلكَ، وكُلُّ هذا حرامٌ منافٍ للصَّبْرِ الواجِبِ.

المرتبةُ الثانيةُ: الصَّبْرُ، وهو كما قال الشَّاعِرُ:

والصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مذاقَتُهُ لكِنْ عواقِبُهُ أحلى مِنَ العَسَلِ

فيَرى أنَّ هذا الشيءَ ثقيلٌ عليهِ، لكنَّهُ يَحتمِلُهُ، وهو يَكْرَهُ وُقُوعَهُ، ولكنَّ الصبرَ يحْميهِ من التَّسَخُّطِ، فليسَ وقوعُهُ وعدمُهُ سواءً عندَهُ، وهذا واجِبٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أمَرَ بالصَّبْرِ فقال: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

المرتبةُ الثالثةُ: الرِّضا، بأنْ يرضى الإنسانُ بالمصيبةِ، بحيْثُ يكونُ وجودُها وعدَمُها سواءً، فلا يَشُقُّ عليه وجُودُها ولا يَتحمَّلُ لها حِمْلًا ثقيلًا، وهذه مستحَبَّةٌ وليستْ بواجبةٍ على القَوْلِ الراجحِ، والفَرْقُ بينها وبينَ المرتبةِ التي قبلَها ظاهِرٌ؛ لأنَّ المصيبةَ وعدمَها سواءٌ في الرِّضا عند هذا، أما التي قبلَها فالمصيبةُ صعبةٌ عليه، لكنْ صَبَرَ عليها.

المرتبةُ الرابعةُ: الشُّكْرُ، وهو أعلى المراتبِ، وذلك بأنْ يَشْكُرَ اللهَ على ما أصابَهُ من مصيبةٍ، حيثُ عَرَفَ أنَّ هذهِ المصيبةَ سَبَبٌ لتكفيرِ سيِّئاتِهِ، وربَّما لزيادةِ حسناتِهِ، قال ﷺ: «ما مِنْ مصيبةٍ تُصيبُ المسلمَ إلا كَفَّرَ اللهُ بها عنه، حتى الشوكةُ يُشاكُها»[1][2].

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٦٤٠).

(٢) مجموعُ فتاوى ورسائلِ ابنِ عُثيمين (١٠/ ٦٩٤).

CamScanner صوّبت بـ

٤ - الفرق بين البلاء والعقوبة:

وَكَابِدْ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ النَّفْسُ عُذْرَهَا ... وَكُنْ فِي اقْتِبَاسِ الْعِلْمِ طَلَّاعَ أَنْجُدِ[(١)]

هل يُعَدُّ كُلُّ ابتلاءٍ مصيبةً جزاءً على تقصيرٍ؟ وبالتالي فهل كُلُّ بلاءٍ ومصيبةٍ عقوبةٌ؟

تلك مسألةٌ قد تُشكِلُ على بعضِ الناسِ. ومَنْشأُ الإشكالِ فيما أرى: من الاختلافُ في فَهْمِ النصوصِ المتعلِّقةِ بهذهِ المسألةِ، وكيفَ يكونُ الجزاءُ على الأعمالِ.

فعلى حينِ يَرِدُ التصريحُ في بعضِها بأنَّ كُلَّ مصيبةٍ تقعُ فهي بسببِ ما كَسَبَهُ العبدُ، كقولِهِ تباركَ وتعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

نجدُ نصوصًا أُخرَ تصرِّحُ بأنَّ «أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ثم الأمثلُ فالأمثلُ يُبتلى الرَّجُلُ على حَسَبِ دينِهِ فإنْ كانَ في دينِهِ صُلْبًا اشتدَّ بلاؤُهُ وإنْ كانَ في دينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ على قدرِ دينِهِ فما يَبرَحُ البلاءُ بالعبدِ حتَّى يتركَهُ يمشي على الأرضِ وما عليهِ خطيئةٌ»[(٢)].

وبأنَّ البلاءَ يقعُ - فيما يقعُ له - على المؤمنينَ ليَكشِفَ عن معادِنِهِم ويَختَبِرَ صِدْقَهُم ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾ فلو كانَ كُلُّ بلاءٍ يقعُ يكونُ جزاءً على تقصيرٍ؛ لكانَ القياسُ أن يكونَ أشدَّ الناسِ بلاءً الكفرةُ والمشركونَ والمنافقونَ بدليلِ الآيةِ السابقةِ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠].

---

(١) مجلة العصابة الإسلامية (١/ ٥٩٩).

(٢) (حسن) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٤٣)، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

صوير بـ CamScanner

والذي يزولُ بِهِ هذا الإشكالُ بإذنِ اللهِ تعالى، هو أنْ تَنظُرَ إلى هذهِ المسألةِ من ثلاثِ جهاتٍ:

الأولى: أنْ تُفرِّقَ بين حالِ المؤمنينَ وحالِ الكُفَّارِ في هذهِ الدنيا.

فالمؤمنون لا بُدَّ لهم من الابتلاءِ في هذهِ الدنيا، لأنَّهم مؤمنون، قبل أنْ يكونوا شيئًا آخرَ، فهذا خاصٌّ بهم، وليس الكفارُ كذلك. ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ١ - ٢].

الجهةُ الثانيةُ: أنَّهُ لا انفصالَ بين الجزاءِ في الدنيا والجزاءِ في الآخرةِ.

فما يقعُ على المؤمنينَ من البلاءِ والمصائبِ في الدنيا، فهو بما كَسَبَتْ أيديهم من جهةٍ، وبحَسَبِ منازلِهم عندَ اللهِ في الدارِ الآخرةِ من جهةٍ ثانيةٍ.

فمنهُم من يُجْزَى بكُلِّ ما اكتسبَ من الذنوبِ في هذهِ الدنيا، حتى يلقى اللهَ يومَ القيامةِ وليس عليهِ خطيئةٌ. وهذا أرفعُ منزلةً ممَّنْ يلقى اللهَ بذُنُوبِهِ وخطاياه. ولهذا اشتدَّ البلاءُ على الأنبياءِ فالصالحين فالأَمْثَلِ فالأَمْثَلِ؛ لأنهم أكرمُ على اللهِ من غيرِهم.

ومَنْ كان دونَ ذلك فجزاؤه بما كَسَبَتْ يداهُ في هذهِ الدنيا بحَسَبِ حالِهِ. وليس الكفارُ كذلك؛ فإنهم ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾، فليس هناك أجورٌ تُضاعَفُ ولا درجاتٌ تُرفَعُ، ولا سيئاتٌ تُكفَّرُ. ومقتضى الحكمةِ ألّا يدَّخِرَ اللهُ لهم في الآخرةِ عَمَلًا صالحًا، بل ما كان لهم من عَمَلِ خيرٍ، وما قدَّموا من نفعٍ للخَلْقِ يُجْزَون ويكافؤون به في الدنيا، بأنْ يُخفَّفَ عنهم في لأوائها وأمراضِها. وبالتالي لا يَمُرُّ عليهم ولا يَبْتَليهم بهذا النوعِ من المصائبِ والابتلاءاتِ.

CamScanner صورت بـ

فما يصيبُ المؤمنين ليس قدرًا زائدًا على ما كسبَتْهُ أيديهم، بل هو ما كسَبُوهُ أو بعْضُهُ، عُجِّل لهم، لما لهم من القَدْرِ والمنزلةِ عندَ الله.

وهذه يوضِّحُها النَّظَرُ في الجِهَةِ الثالثةِ وهي:

أن نعلمَ علمَ اليقينِ أنَّ أيَّ عملٍ نافعٍ تقومُ به الجماعةُ أو الأمةُ المسلمةُ، فإنَّها لا بُدَّ أن تلقى جزاءَهُ في الدنيا، كما يلقى ذلكَ غيرُها، بل أفضلُ ممَّا يلقاهُ غيرُها. وهذا شيءٌ اقتضتْهُ حكمةُ اللهِ، وجرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ.

ولهذا صَحَّ مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قال: «إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مؤمنًا حَسَنَةً، يُعطَى بها في الدنيا ويُجزَى بها في الآخرةِ. وأمَّا الكافِرُ فيُطْعَمُ بحسناتِ ما عَمِلَ بها للهِ في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرةِ لم تكُنْ له حَسَنَةٌ يُجزَى بها»[1].

والخلاصةُ:

أنَّه لا يكونُ بلاءٌ ومصيبةٌ إلا بِسَبَبِ ذنبٍ.

وأنَّ المؤمنين يُجْزَوْنَ بحسناتِهم في الدنيا والآخرةِ، ويُزادُ في بلائِهم في الدنيا ليُكفِّرَ اللهُ عنهم من خطاياهم التي يجترحُونها، فلا يُعاقَبون عليها هناك، وحتى تَسْلَمَ لهم حسناتُهُم في الآخرةِ.

وأما الكفارُ فيُجْزَون بحسناتِهم كلِّها في الدنيا، فيكونُ ما يتمتعون به في دنياهم - مما يُرى أنَّهُ قدرٌ زائدٌ على ما أُعطِيَهُ المؤمنون - يكونُ هذا في مقابلةِ ما يكونُ لهم من حسناتٍ، وليس لهم في الآخرةِ من خلاقٍ[2].

(١) رواه مسلم (٢٨٠٨).

(٢) «سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن» (٢٨٦ - ٢٨٨) للدكتور حسن الحميد - وفقه الله -.

٥ - الابتلاءُ خاصٌ بالمؤمنين:

هي الدارُ ما الآمالُ إلا فجائعٌ عليها ولا اللذَّاتُ إلا مصائبُ(١)

الابتلاءُ خاصٌ بالمؤمنِ دلَّ على ذلك حديثُ كعبِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ:

«مثَلُ المؤمنِ كالخامةِ من الزَّرعِ تفيؤُها الريحُ مرةً وتعدِلُها مرةً ومثَلُ المنافقِ - وفي روايةٍ للبخاريِّ: الفاجرِ وفي روايةٍ عند مسلمٍ الكافرِ - كالأرزةِ لا تزالُ حتى يكونَ انجعافُها مرَّةً واحدةً»(٢).

وهذا الحديثُ فيه دلالةٌ واضحةٌ أنَّ حالَ العبدِ المؤمنِ لا تستقرُّ فقد شبَّهَهُ - أي المؤمنَ - بالخامةِ من الزَّرعِ أي: اللَّيِّنةِ من الزَّرعِ الذي يخرجُ من الأرضِ لا يستطيعُ أنْ يتغلَّبَ على الريحِ فهي تفعلُ به ما تشاءُ تُقيمُهُ تارةً وتُنزِلُهُ إلى الأرضِ تارةً وهكذا حالُ العبدِ المؤمنِ من حالٍ إلى حالٍ بخلافِ حالِ الكافرِ والمنافقِ والفاجرِ على الغالبِ في صحةٍ وعافيةٍ تُحمَدُ في غالبِ الأحوالِ فقد شبَّهَهُ عليه الصلاةُ والسلامُ بالأرزةِ والأرزةُ كما قال الحافظُ: قال الخطابيُّ: الأرزةُ مفتوحةُ الرَّاءِ واحدةُ أرزٍ وهو شجرُ الصَّنَوْبَرِ فيما يقالُ(٣). وشجرةُ الصنوبرِ ضخمةٌ لا يكونُ للريحِ عليها أثرٌ إلَّا إذا أتتْ ريحٌ قويةٌ فتكسرُها فيكونُ مآلُها الموتُ والزوالُ وهذا معنى قولِهِ عليه الصلاةُ والسلامُ: «كالأرزةِ لا تزالُ حتى يكونَ انجعافُها مرَّةً واحدةً» أي انقلاعُها مرَّةً واحدةً.

---

(١) العقدُ الفريدُ (٣/ ١٤٣).

(٢) والبخاريُّ (٥٦٤٣)، ومسلمٌ (٢٨١٠).

(٣) انظرِ الفتحَ (١٠/ ٩٦)

CamScanner صوريا بـ

وهكذا الكفارُ والمنافقون لا يُسلِّطُ اللهُ عليهم ما لا يُحِبُّونَ بل يَفْتَحُ لهم أبوابَ كُلِّ شيءٍ حتى إذا تمادَوا ونَسُوا أخَذَهم اللهُ أخذةً واحدةً أخذةَ عزيزٍ مقتدرٍ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٤ - ٤٥].

بخلافِ المؤمنِ فإنَّ اللهَ يُسلِّطُ عليه ما يَكرَهُ إمَّا لأنَّ له ذنوبًا يريدُ اللهُ أنْ يُكفِّرَها له أو ابتلاءً يريدُ أنْ يرفعَ له به الدَّرجاتِ.

وما يُرَى فيه الكافرُ في الظاهرِ من عدمِ البلاءِ وأنَّ اللهَ فتحَ عليه أبوابَ كُلِّ شيءٍ فباطنُ ذلك بخلافِهِ قال اللهُ ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، أي عيشًا ضيِّقًا في الدُّنيا، يقولُ ابنُ كثيرٍ ﷺ: «لا طمأنينةَ له، ولا انشراحَ لصدرِهِ، بل صدرُهُ ضيِّقٌ حرجٌ؛ لضلالِهِ وإنْ تنعَّمَ ظاهرُهُ، ولَبِسَ ما شاءَ، وأكَلَ ما شاءَ، وسكَنَ حيثُ شاءَ؛ فإنَّ قلبَهُ ما لم يَخلُصْ إلى اليقينِ والهُدى فهو في قلقٍ وحَيرةٍ وشكٍّ، فلا يَزالُ في رَيبِهِ يتردَّدُ؛ فهذا من ضنكِ المعيشةِ»[1].

بخلافِ المؤمنِ فحياتُهُ حياةٌ طيبةٌ بالإيمانِ والعملِ الصالحِ، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

ويعجبني قولُ شمسِ المعالي قابوس:

قُلْ للذي بصروفِ الدَّهرِ عيَّرنا ... هل حاربَ الدَّهرُ إلا مَنْ لَهُ خطرُ

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٢٢).

CamScanner صوّيا بـ

ففي السماء نجوم ما لها عددٌ ... وليس يُكسف إلا الشمس والقمر
وكم في الأرض من خضراء مونقةٍ ... وليس يُرجم إلا ما له ثمر[(١)]

٦- المصائب كفارات ومع الصبر كفارات وأجر:

جلّ شأنُ الله هادي خلقِه ... بهدى العلم، ونور العلماء[(٢)]

اختلف العلماءُ هل يُكتَبُ الثوابُ على مُجرَّدِ ابتلاء الله تعالى لعبده المسلم بالأمراض والمصائب أم يُشترطُ الصَّبرُ والاحتسابُ؟

والتحقيقُ في ذلك: أنَّ المصائبَ كفاراتٌ لأهلها ما لم تصلْ منهم محرماتٌ كتسخُّطٍ أو شقِّ ثوبٍ أو نياحةٍ، وأنَّها رافعةٌ للدرجات وبابٌ للأجرِ والثواب إذا صاحبها صبرٌ واحتسابٌ.

قال الحافظُ ابنُ حجرٍ رحمه الله: «الأحاديثُ الصحيحةُ صريحةٌ في ثبوتِ الأجرِ بمجرَّدِ حُصُولِ المصيبة، وأما الصَّبرُ والرِّضا فقدْرٌ زائدٌ يُمكِنُ أن يُثابَ عليهما زيادةً على ثوابِ المصيبة، قال القرافيُّ: المصائبُ كفاراتٌ جزمًا سواءٌ اقترنَ بها الرِّضا أم لا، لكنْ إن اقترنَ بها الرِّضا عَظُمَ التكفيرُ وإلَّا قلَّ». كذا قال، والتحقيقُ: أنَّ المصيبةَ كفارةٌ لذنبٍ يُوازيها، وبالرِّضا يُؤجَرُ على ذلك، فإنْ لم يكُنْ للمُصابِ ذنبٌ عُوِّضَ عن ذلك من الثوابِ بما يوازيها[(٣)].

وقال الشيخُ محمدُ بنُ صالحٍ العثيمين رحمه الله: «وليَعلَمِ المصابُ بأيِّ مصيبةٍ أنَّ

(١) أنوار الربيع ([illegible]).
(٢) ديوان [illegible] ([illegible]).
(٣) فتح الباري ([illegible]).

هذه المصائب كفّاراتٌ لما حَصَلَ منه من الذنوب، فإنّهُ لا يُصيبُ المرءَ المؤمنَ همٌّ ولا غمٌّ ولا أذى إلا كفَّرَ اللهُ عنه به حتى الشوكةَ يُشاكُها، ومع الصَّبرِ والاحتسابِ ينالُ منزلةَ الصابرين، تلك المنزلةُ العاليةُ التي قال اللهُ تعالى في أهلِها: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾(1).

وهذا قول جُلَّةٍ من الصحابة كأبي عُبيدة وابنِ مسعودٍ رضي الله عنهما، وجُلَّةٍ من العلماءِ المحققين كابنِ تيمية وابنِ القيِّم رحمهما الله.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رحمه الله: والدَّلائلُ على أنَّ المصائبَ كفاراتٌ: كثيرةٌ، إذا صَبَرَ عليها: أُثيبَ على صَبْرِه، فالثوابُ والجزاءُ إنَّما يكونُ على العملِ وهو الصَّبرُ، وأمَّا نفسُ المصيبةِ: فهي من فِعْلِ الله لا مِنْ فِعْلِ العبدِ، وهي من جزاءِ الله للعَبْدِ على ذنبِه وتكفيرِه ذَنْبَهُ بها، وفي المُسْنَدِ «أنَّهم دخلوا على أبي عبيدةَ بنِ الجرَّاحِ وهو مريضٌ، فذكروا أنَّهُ يُؤجَرُ على مرضِه، فقال: «ما لي من الأجرِ ولا مثلُ هذه، ولكنَّ المصائبَ حِطَّةٌ»؛ فبيَّنَ لهم أبو عبيدةَ رضي الله عنه أنَّ نفسَ المرضِ لا يُؤجَرُ عليه، بل يُكفَّرُ به عن خطاياه»(2).

وقال ابنُ القيِّم رحمه الله: وذُكِرَ عن أبي مُعْمَرٍ الأزديِّ قال: كنَّا إذا سمعنا من ابنِ مسعودٍ شيئًا نكرهُهُ سكتنا، حتى يُفسِّرَهُ لنا، فقال لنا ذاتَ يومٍ: «ألا إنَّ السَّقَمَ لا يُكتَبُ له أجرٌ، فساءَنا ذلك وكَبُرَ علينا، فقال: «ولكن يُكفَّرُ به الخطيئةُ»، فسرَّنا ذلك وأعجبَنا.

---

(1) مجموعُ فتاوى الشيخ العثيمين (7/ 62).

(2) مجموعُ فتاوى ابن تيمية (30/ 363).

CamScanner صوير بـ

وهذا من كمال علمه وفقهه رحمه الله، فإن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية وما تولد منها، كما ذكر الله سبحانه النوعين في آخر سورة «التوبة» في قوله في المباشر من الإنفاق وقطع الوادي: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم﴾ وفي المتولد من إصابة الظمأ والنصب والمخمصة في سبيله وغيظ الكفار: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ فالثواب مرتبط بهذين النوعين.

وأما الأسقام والمصائب: فإن ثوابها تكفير الخطايا ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ والنبي ﷺ إنما قال في المصائب: «كفّر الله بها من خطاياه»، وكذا قوله: «المرض حطة» فالطاعات ترفع الدرجات، والمصائب تحط السيئات، ولهذا قال: «من يرد الله به خيرًا يُصب منه» وقال: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين» فهذا يرفعه وهذا يحط خطاياه[١].

ما أجدر العلماء أن يَغنى لهم | ويطاع أمرهم الأسد الأرشد
فهم الملوك ولا وقتم لا ينقضي | والأغبياء تمرّدهم لا ينفد[٢]

٧ - المصائب تكفّر الصغائر والكبائر:

ما بك ونح وتضرع في الدنيا أسفًا | على كبائر لا تحصى لها عددًا[٣]

المصائب تكفّر جميع الذنوب على الصحيح كما هو ظاهر الأدلة.

قال ابن حجر عند إيراده لقول الرسول ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يُصب منه»[٤]

---

(١) «عدة الصابرين» (ص٦٩، ٧٠).
(٢) ديوان [illegible] (٢٠٨).
(٣) [illegible] (٢/ ٨٦).
(٤) رواه البخاري (٥٦٤٥).

ضوئيا بـ CamScanner

وما قَبْلَهُ من الأحاديثِ السابقةِ: وفي هذه الأحاديثِ بشارةٌ عظيمةٌ لكُلّ مؤمنٍ؛ لأنَّ الآدميَّ لا يَنْفَكُّ غالبًا من ألمٍ بسببِ مرضٍ أو هَمٍّ أو نَحْوِ ذلك مما ذُكِرَ، وأنَّ الأمراضَ والأوجاعَ والآلامَ بدنيةً كانت أو قلبيةً تُكَفِّرُ ذنوبَ مَنْ تَقَعُ له، وسيأتي في البابِ الذي بعدَهُ من حديثِ ابنِ مسعودٍ: «ما مِنْ مسلمٍ يصيبُهُ أذًى إلا حاتَّ اللهُ عنهُ خطاياه»[1] وظاهِرُهُ تعميمُ جميعِ الذنوبِ لكنَّ الجمهورَ خصُّوا ذلكَ بالصغائرِ، للحديثِ: «الصلواتُ الخمسُ والجُمُعَةُ إلى الجُمُعَةِ ورمضانُ إلى رمضانَ كفاراتٌ لما بينهُنَّ ما اجْتُنِبَتِ الكبائرُ»[2]. فحَمَلوا المطلقاتِ الواردةَ في التكفيرِ على هذا المُقَيَّدِ[3] ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ معنى الأحاديثِ التي ظاهِرُها التعميمُ أنَّ المذكوراتِ صالحةٌ لتكفيرِ الذنوبِ فيُكَفِّرُ اللهُ بها ما شاءَ من الذنوبِ ويكونُ كثرةُ التكفيرِ وقلَّتُهُ باعتبارِ شِدَّةِ البلاءِ وخِفَّتِهِ[4].

قال شيخُ الإسلامِ رحمه الله: فأهْلُ السُّنَّةِ والجماعةِ لا يُوجِبون العذابَ في حَقِّ كُلِّ مَنْ أتى كبيرةً ولا يَشْهَدون لمسلمٍ بعينِهِ بالنارِ لأجْلِ كبيرةٍ واحدةٍ عَمِلَها؛ بل يجوزُ عِنْدَهم أنَّ صاحبَ الكبيرةِ يُدْخِلُهُ اللهُ الجَنَّةَ بلا عذابٍ إما لحسناتٍ تَمْحو كبيرتَهُ منه أو من غيرِهِ؛

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٥٣٢٣)، ومسلمٌ (٢٥٧١).

(٢) رواهُ مسلمٌ (٢٣٣).

(٣) أجابَ العلماءُ عن هذا الاعتراضِ بقولِهِم إنَّه لا يُحْمَلُ المُطْلَقُ على المُقَيَّدِ - ولا سيَّما في مثلِ هذا الموضعِ - لأنَّ سببَ التكفيرِ مختلفٌ، فالتكفيرُ في حديثِ: «ما اجْتُنِبَتِ الكبائرُ» واقعٌ بفعلِ الحسناتِ، وموضوعُ التكفيرِ بفعلِ الحسناتِ شيءٌ، وموضوعُ التكفيرِ بوقوعِ المصائبِ شيءٌ آخرُ، فليسَ السببُ واحدًا، ولا بُدَّ في حَمْلِ المُطْلَقِ على المقيَّدِ من اتحادِ السببِ والحُكْمِ حتى نَحْمِلَ هذا على هذا، فالمصائبُ شيءٌ غيرُ الطاعاتِ.

(٤) فتحُ الباري (١٠/ ١٠٨).

صوريا بـ CamScanner

وإما لمصائب كفَّرتها عنه وإما لدعاءٍ مستجابٍ منه أو من غيره فيه وإما لغير ذلك[1].

وقال بعد ذكرِ الأسبابِ العشرةِ التي يُكَفِّرُ اللهُ بها المصائبَ:

«والعِقَابُ قَدْ يَنْدَفِعُ عَنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ بِهَذِهِ الأَسْبَابِ الْعَشَرَةِ كَانَ دَعْوَاهُمْ أَنَّ عُقُوبَاتِ أَهْلِ الْكَبَائِرِ لَا تَنْدَفِعُ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مُخَالِفٌ لِذَلِكَ»[2].

قال شيخُنا أبو بكرٍ الحماديُّ - حفظه الله - ظاهرُ الأدلَّةِ أنَّ المصائبَ تُكفِّرُ جميعَ الذنوبِ حتى الكبائرَ لحديثِ مُصعبِ بنِ سَعْدٍ عن أبيه قُلتُ: يا رسولَ اللهِ أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً قال: «الأنبياءُ ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ يُبتلى الرَّجُلُ على حَسَبِ دينِهِ فإن كان دينُهُ صلبًا اشتدَّ بلاؤه وإنْ كان في دينِهِ رِقَّةٌ ابتلاهُ على حَسَبِ دينِهِ فما يَبْرَحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يتركَهُ يمشي على الأرضِ وما عليه خطيئةٌ»[3]. وأيضًا فإنَّ العقوبةَ الشرعيةَ وهي الحدودُ تُكفِّرُ الكبائرَ كما جاءت بذلك السُّنَّةُ ولا فرقَ بينهما وبين العقوبةِ القدريَّةِ النازلةِ على أهلِ الكبائرِ والله أعلم

٨- المصائبُ سببُها الذنوبُ والمعاصي:

فارغبْ إلى الربِّ في تيسيرِهِ سببًا ننجو به من بلايا حادثِ الزَّمَنِ[4]

يظنُّ مَنْ لا خلاقَ له أنَّ البلاءَ إنما تأتي من طاعةِ اللهِ ورسولِهِ وهذا إنما أتى من جهلِهِ.

---

(١) الفتاوى (٧/ ٥٠٠).

(٢) المرجع السابق (٧/ ٤٨٧).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٢).

(٤) التحفة اليمنية (٤/ ٣٠٦).

CamScanner ضوئيا بـ

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمه الله: «وليست البلايا والمصائبُ تأتي من طاعةِ اللهِ ورسولِهِ، كما يظنُّ بعضُ الجهَّالِ، فإنَّ هذه جزاءُ أصحابِها خيرُ الدنيا والآخرةِ[١].

ولكنْ قد تُصيبُ المؤمنين باللهِ ورسولِهِ مصائبُ بسببِ ذنوبِهم لا بما أطاعوا فيه اللهَ ورسولَهُ كما لحقَهم يومَ أُحُدٍ بسببِ ذنوبِهم.

وكذلك ما ابتُلوا به من السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والزلزالِ، ليسَ هو بسببِ إيمانِهم وطاعتِهم، ولكنِ امْتُحِنُوا بِهِ لِيتخلَّصُوا مما فيهم من الشَّرِّ، وفُتِنُوا به كما يُفتَنُ الذَّهبُ بالنارِ ليتميَّزَ خبيثُهُ من طيِّبِهِ، والنفوسُ فيها شَرٌّ، والامتحانُ يُمَحِّصُ المؤمنَ من ذلك الشرِّ الذي في نفسِهِ»[٢].

ومِنَّا شجاني والشُّجونُ كثيرةٌ ذنوبٌ عظامٌ أسبلَتْ عبراتي

وأقلقَني أنِّي أموتُ مُفرِّطًا على أنَّني خُلِّفْتُ بعدَ لِداتي

إلى اللهِ أشكو جهلَ نفسي فإنَّها تميلُ إلى الراحاتِ والشهواتِ[٣]

٩- الأجرُ على قدرِ البلاءِ:

إنَّ البلاءَ يُطاقُ غيرَ مُضاعَفٍ فإذا تضاعَفَ صارَ غيرَ مُطاقِ[٤]

كلَّما تضعَّفَ البلاءُ على العبدِ يُضاعَفُ له الأجرُ فمَنْ أُصيبَ بحادثٍ ليسَ كمَنْ أُصيبَ بشوكةٍ وقِسْ مثلَ ذلك في أنواعِ البلاءِ.

---

(١) أي من ابتُلي بسبب طاعته لله وصبره فإنه يُجزى بخير الدنيا والآخرة، وليس المراد أنَّ المصائب بسبب الذنوب فقط. (مجلة البحوث عدد ١٥ ص ٢٧٧).

(٢) انظر: الحسنةُ والسيئةُ لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤٤).

(٣) ديوانُ الأبيورديّ (٥٣).

(٤) ديوانُ ابن الرومي (٣٠٨٤).

صوّرت بـ CamScanner

فعن أبي سعيد الخدري قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف فقلت يا رسول الله ما أشدها عليك قال: «إنا كذلك يضعف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر». قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء قال: «الأنبياء».

قلت: يا رسول الله ثم من قال: «ثم الصالحون إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحويها وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء»[1].

فأعد صبرك للنوائب جنة ... فالمرء رهن مصائب وحوادث[2]

١٠- المؤمن لا يستدعي البلاء:

كلف جوادك ما يطيق فالحرى ... أن تستقل بما تطيق حوافره[3]

لا يجوز للمسلم أن يستدعي البلاء على نفسه كما لا يجوز له تمني لقاء العدو والذي يجب عليه هو الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لأمته فعن أنس أن رسول الله صلى اللهم عليه وسلم عاد رجلا من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ[4] فقال له رسول الله صلى اللهم عليه وسلم هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه قال نعم كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا فقال رسول الله

---

(١) (صحيح) أخرجه أحمد (٣/ ٧٧) وابن ماجه (٤٠٢٤) وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٤٤) وحسنه شيخنا الوادعي في «الجامع الصحيح» (١٥٨).

(٢) «مفيد العلوم» (٢٩٨).

(٣) البصائر والذخائر (٢/ ٣٢).

(٤) مثل الفرخ: ضعيف انحنف من شدة المرض.

صورت بـ CamScanner

صلّى اللهم عليه وسلّم: «سُبحانَ الله! لا تُطيقُهُ أوْ لا تستطيعُهُ، أفَلا قُلْتَ: اللَّهُمَّ ﴿آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾» قال: فدعا الله له فشفاه[١].

قال النوويُّ في هذا الحديث:

١ – النَّهيُ عن الدعاءِ بتعجيلِ العُقُوبة.

٢ – وجوازُ التَّعجُّبِ بقولِ: سبحانَ الله.

٣ – واستحبابُ عيادةِ المريضِ والدعاءِ له.

٤ – وفيه كراهةُ تمني البلاءِ لِئَلَّا يتضجَّرَ منه ويَتسخَّطهُ وربَّما شكا.

٥ – وفضلُ الدعاءِ باللَّهُمَّ آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقنا عذابَ النارِ[٢].

وقد جاء النَّهيُ عن تمني لقاءِ العَدُوِّ ووَرَدَ الأمرُ بالثباتِ عند لقائِهِ، فإنَّ رسولَ الله ﷺ في بعضِ أيامِهِ التي لَقِيَ فيها انتظرَ حتى مالَتِ الشمسُ، ثم قامَ في الناسِ خطيبًا قال: «أيُّها الناسُ، لا تتمنَّوا لقاءَ العدوِّ، وسَلُوا اللهَ العافيةَ، فإذا لقيتُموهم فاصْبِروا، واعلَموا أن الجنةَ تحتَ ظلالِ السيوفِ. ثم قال: اللهمَّ مُنزِلَ الكتابِ، ومُجرِيَ السَّحابِ، وهازِمَ الأحزابِ، اهزِمْهُم وانصُرْنا عليهم»[٣].

ويُعجبني قولُ شمسِ الدينِ بنِ خِلِّكان:

انظــــرْ إلـــــى عارضِـــــهِ فوقَـــــهُ لحاظُـــــهُ تُرســـــلُ منهـــــا الحتـــــوفْ

---

(١) رواهُ مسلمٌ (٢٦٨٨).

(٢) شرحُ النوويِّ على مسلم (١٧/ ١٣).

(٣) رواهُ البخاريُّ حديث ٢٩٦٥ - ٢٩٦٦.

بيا بـ CamScanner

تساقط الجثث في وجهه   لكنها تحت ظلال السيوف[١]

١١ - الحكمة من تسليط أعداء الله على أوليائه:

إن لله حكمة دونها العقـ   ـل تخال المراء والترديدا[٢]

كم لله في خلقه من حكمة حيرت العقول والأفهام فمن لا يقف عليها فليسلم للعليم الحكيم وليترك الشك والاعتراض ومن وقف على بعض منها فذلك نور إلى نور فمن تلك الحكمة تسليط أعدائه على أوليائه.

قال الله ﷻ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨)﴾ [البروج: ١ - ٨].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى: «في هذه الآيات من العبر: أن الله ﷻ قد يسلط أعداءه على أوليائه، فلا تستغرب إذا سلط الله ﷻ الكفار على المؤمنين وقتلوهم وحرقوهم، وانتهكوا أعراضهم، لا تستغرب فلله تعالى في هذا حكمة، المصابون من المؤمنين أجرهم عند الله عظيم، وهؤلاء الكفار المعتدون أملى لهم الله ﷻ ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، والمسلمون الباقون لهم عبرة وعظة فيما حصل لإخوانهم، فمثلا نحن نسمع ما يحصل من الانتهاكات العظيمة، انتهاك الأعراض، وإتلاف الأموال، وتجويع الصغار والعجائز، نسمع أشياء تبكي فنقول: سبحان الله ما هذا التسليط الذي سلطه الله على هؤلاء المؤمنين؟ نقول يا أخي لا تستغرب فالله ﷻ ضرب

(١) الأزدهار (٨).

(٢) ديوان الشعر العربي (٧١/ ٢٨).

CamScanner ـب صوريا

لنا أمثالًا فيمن سبق يُحرِّقون المؤمنين بالنارِ، فهؤلاءِ الذين سُلِّطوا على إخوانِنا في بلادِ المسلمين هذا رفعةٌ درجاتِ المصابين، وتكفيرُ السيئاتِ، وهو عبرةٌ للباقين، وهو - أيضًا - إغراءٌ لهؤلاءِ الكافرين حتى يتسلَّطوا فيأخُذَهُمُ الله عَزَّوَجَلَّ أخذَ عزيزٍ مُقتدرٍ»[1].

وقال ابنُ القيِّمِ رحمه الله تعالى: «ولهذا سَلَّطَ على أنبيائِهِ وأوليائِهِ ما سَلَّطَ عليهم من القتلِ، وأذى الناسِ، وظُلْمِهم لهم، وعُدوانِهم عليهم، وما ذاك لهوانِهم عليه ولا لكرامةِ أعدائِهم عليه، بل ذاك عَيْنُ كرامتِهم وهوانُ أعدائِهم عليه، وسُقوطُهم من عينِهِ، ليَنالُوا بذلك ما خُلِقُوا له من مساكنِهم في دارِ الهوانِ، وينالَ أولياؤه وحزبُهُ ما هُيِّئَ لهم من الدرجاتِ العُلَى، والنعيمِ المقيمِ فكان تسليطُ أعدائِهِ وأعدائِهم عليهم عَيْنَ كرامتِهم، وعينَ إهانةِ أعدائِهم»[2].

تطـرَّقُ أهـلَ الفضـلِ دونَ الـورى ... مصـائبُ الـدنيا وآفاتُهـا
كـالطَّيرِ لا يُسجَنُ مـن بينِهـا ... إلا الـتي تُطـربُ أصـواتُها[3]

١٢ - الحكمةُ من ابتلاءِ الأنبياءِ:

فقــرٌ كفقــرِ الأنبيــاءِ وغربــةٌ ... وصــبابةٌ ليس البلاءُ بواحـدِ[4]

قال ابنُ القيِّمِ: «فإنَّهُ سبحانَهُ كما يحمي الأنبياءَ ويصونُهم ويحفظُهم ويتولَّاهم، فيبتليهِمْ بما شاءَ من أذى الكفارِ لهم

---

(١) تفسيرُ جزءِ عمَّ للعثيمين ([illegible]).
(٢) مفتاحُ دارِ السعادةِ (٢/ [illegible]).
(٣) من رحيقِ الشعرِ ([illegible]).
(٤) المصونُ في الأدبِ ([illegible]).

أ - ليستوجبوا كمالَ كرامتِه.

ب - وليتسلَّى بهم مَنْ بعدهم من أممِهم وخلفائِهم إذا أوذوا من الناسِ، فرأوْا ما جرَىٰ على الرُّسلِ والأنبياءِ صَبَروا ورَضُوا وتأسَّوْا بهم.

ج - وليَمْتلِئَ صاعُ الكُفَّارِ، فيستوجبون ما أُعِدَّ لهم من النَّكَالِ العاجلِ والعقوبةِ الآجلةِ، فيمْحَقهُمْ بسببِ بغْيِهم وعداوتِهم، فيُعجِّل تطهيرَ الأرضِ منهم.

فهذا من بَعْضِ حكمتِهِ تعالىٰ في ابتلاءِ أنبيائِه ورُسُلِهِ بإيذاءِ قومِهم، وله الحكمةُ البالغةُ، والنعمةُ السابغةُ، لا إلهَ غيرُه، ولا رَبَّ سواه»[1].

١٣ - كراهة تمني الموت بسبب البلاء:

لـيسَ مـن مـاتَ فاسـتراحَ بمَيْـتٍ إنَّمـا المَيْـتُ ميِّـتُ الأحيـاءِ[2]

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ لا بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلْمَوْتِ فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»[3].

قَالَ النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ فِيهِ: التَّصْرِيحُ بِكَرَاهَةِ تَمَنِّي الْمَوْتِ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ مِنْ مَرَضٍ أَوْ فَاقَةٍ أَوْ مِحْنَةٍ مِنْ عَدُوٍّ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنْ مَشَاقِّ الدُّنْيَا، فَأَمَّا إِذَا خَافَ ضَرَرًا فِي دِينِهِ أَوْ فِتْنَةً فِيهِ، فَلا كَرَاهَةَ فِيهِ؛ لِمَفْهُومِ هَذَا الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِ، وَقَدْ فَعَلَ هَذَا الثَّانِي خَلائِقُ مِنَ السَّلَفِ عِنْدَ خَوْفِ الْفِتْنَةِ فِي أَدْيَانِهِمْ. وَفِيهِ أَنَّهُ إِنْ خَافَ وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى حَالِهِ فِي بَلْوَاهُ بِالْمَرَضِ وَنَحْوِهِ فَلْيَقُلْ:

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ١٥٣).

(٢) «تتمة اليتيمة» (٢/ ١١٥).

(٣) رواه البخاريُّ (٦٣٥١) ومسلمٌ (٢٦٨٠).

CamScanner صوّيا بـ

اللَّهُمَّ أَحْيِنِي إِنْ كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا... إِلَخْ، وَالأَفْضَلُ الصَّبْرُ وَالسُّكُونُ لِلْقَضَاءِ[١].

إنْ يَكُـــنْ نَابَـــكَ الزمـــانُ بِبَلْـــوَى عَظُمَـــتْ مِحْنَـــةٌ علَيـــكَ وجَلَّـــتْ
وأَتَـــتْ بعـــدَها مـــصائبُ أخـــرى سُـــئِمَتْ دونَهـــا الحيـــاةُ ومُلَّـــتْ
فاصْـــطَبِرْ وانتظـــرْ بلـــوغَ مـــداها فالرَّزايـــا إذا توالَـــتْ تَوَلَّـــتْ[٢]

١٤ - تأويلُ مصائبِ الأطفال:

فَـــإنْ تَـــكُ في قَبْـــرٍ فإنَّـــكَ في الحَـــشَا وإنْ تَكُ طِفْلًا فالأسَى ليسَ بالطِّفْـلِ[٣]

لا شَكَّ أن ولادةَ الوليدِ أعْمَى أو مُعاقًا ليس بسَبَبِ الذنوبِ لأنَّهُ لم يَقَعْ منه ذَنْبٌ وليسَ مُكَلَّفًا، وإنما هو ابتلاءٌ قد يرفَعُهُ اللهُ تعالىٰ به ويُكْرِمُ والديهِ وذَوِيهِ إذا صَبَروا علىٰ البلاءِ.

فمَرَضُ الطِّفْلِ، أو ولادَتُهُ مُعوَّقًا، في ميزانِ حسناتِهِ يومَ القيامةِ، قال رسولُ الله ﷺ: «ما يَزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤمنةِ في نفسِهِ، وولَدِهِ، ومالِهِ، حتىٰ يَلْقَىٰ اللهَ وما عليه خطيئةٌ»[٤].

واللهُ ﷻ ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] ومِمَّا ذَكَرَ أهلُ العلمِ من حكمةِ ابتلاءِ الأطفالِ ببعضِ الآلامِ أنَّ اللهَ تعالىٰ يُعَوِّضُهُم عن ذلك بعد موتِهِم، قال القرطبيُّ في تفسيرِهِ: قال العلماءُ: كما اشْتَرَىٰ من المؤمنين البالِغِينَ المُكَلَّفِينَ كذلك اشترىٰ من الأطفالِ فآلَمَهُمْ وأسْقَمَهُم لما في ذلك من المصلحةِ وما فيه من الاعتبارِ للبالغِينَ فإنَّهم لا يكونون عند شيءٍ أكثرَ صلاحًا وأقلَّ فسادًا مِنْهُمْ عند ألَمِ الأطفالِ وما

---

(١) شرحُ النَّوويِّ على مُسْلِمٍ (٩/ ٣).

(٢) المحاضراتُ والمحاوراتُ (٣٥٩).

(٣) التذكرةُ الحمدونيةُ (٤/ ٢٧٩).

(٤) (صحيحٌ) أخرجَهُ التِّرمِذيُّ (٢٣٩٩) وصحَّحَهُ الألبانيُّ في صحيحِ الجامعِ (٥٨١٥).

صوئيا بـ CamScanner

يحصُلُ للوالدين الكافلين من الثواب فيما ينالُهم من الهمِّ ويتعلَّقُ بهم من التربية والكفالة، ثم هو ﷻ يعوِّضُ هؤلاء الأطفالَ عِوَضًا إذا صاروا إليه ونظيرُ هذا في الشاهد أنك تكتري الأجيرَ ليَبني وينقلَ التراب وفي كُلِّ ذلك له ألمٌ وأذى ولكنَّ ذلك جائزٌ لما في عَمَلِه من المصلحة ولما يصِلُ إليه من الأجر. انتهى[1].

فلنْ يُضيِّعَ أجرَ هذا الطفلِ، فهو الذي لا يُضيِّعُ حتى أجرَ الكافرِ، ولكنَّه يُعجِّلُ أجرَهُ في الدنيا من مالٍ، وولدٍ، وصحةٍ، وشُهرةٍ... إلى غير ذلك، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦] وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] وقال رسولُه ﷺ: «إنَّ الله تعالى لا يظلِمُ المؤمنَ حسنةً، يُعطَى عليها في الدنيا، ويُثابُ عليها في الآخرة، وأما الكافرُ فيُطعَمُ بحسناتِه في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكنْ له حسنةٌ يُعطَى بها خيرًا»[2][3].

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/٣٢١).

(٢) رواه مسلم (٢٨٠٨).

(٣) [illegible] (ص [illegible]).

CamScanner صوبيا بـ

مظاهر الابتلاء

١ - الابتلاءُ بالضَّرَّاءِ:

تجهَّمَتْ نُوَبُ الدنيا لعامِرِها ... فلا يَدٌ عن يَدِ الضَّرَّاءِ تَنْتَشِهُ[1]

الابتلاءُ بالضَّرَّاءِ يُرادُ بِهِ الفتنةُ عند الإطلاقِ وله صُوَرٌ منها:

١ - أنْ يَبْتَلِيَ اللهُ المؤمنَ بفَقْدِ عزيزٍ عليه كأبيهِ أو أُمِّهِ أو وَلَدِهِ أو شريكةِ حياتِهِ.

٢ - أنْ يبتلي المؤمنَ بفَقْدِ جُزْءٍ من جِسْمِهِ كذهابِ بَصَرِهِ أو سَمْعِهِ أو رِجْلِهِ أو يَدِهِ.

٣ - أنْ يبتلي المؤمنَ بمَرَضٍ عُضالٍ، أو قَتالٍ، أو يَبْتَلي بالخَوْفِ، والجوعِ، وضيقِ العيشِ.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

قالَ ابن القيمِ رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ الله تعالى لم يبتليه - أي: عَبْدَهُ - ليهلكَهُ وإنَّما ابتلاهُ ليمتحن صبره وعبوديته، فإنَّ لله تعالى على العبد عبودية الضَّرَّاء»[2].

٤ - أشدُّ الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ الابتلاءُ بالدِّينِ:

وكُلُّ كَسْرٍ فإنَّ اللهَ يجْبُرُهُ ... وما لِكَسْرِ قناةِ الدِّينِ جُبْرانُ[3]

أعظمُ البلاءِ وأخطرُهُ البلاءُ في الدينِ في العقيدةِ في الابتعادِ عن اللهِ في العبادةِ إنَّه - لعمري - مصيبةٌ من أعظمِ المصائبِ.

---

(١) «تاريخ الأندلس» (٣٣٣).

(٢) «الوابل الصيب» (٥١).

(٣) «المحاضرة في اللغة والأدب» (٢٣٤).

ممسوح ضوئيا بـ CamScanner

ومن دعاء النبي ﷺ: «ولا تجعل مصيبتنا في ديننا»[1].

ومتى سَلِمَ لك دينُك فلا تُبالِ بما فاتك من الدنيا.

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فما فاته منها فليس بضائر[2]

٢- الابتلاءُ بالمعاصي:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإنَّ المعاصي تُزيل النِّعَم[3]

المعاصي إنما تُعَدُّ نوعًا من الابتلاء من حيثُ إنَّ الله حرَّمها على عبادِه واختبرهم بها هل يمتنعون منها أم لا؟

وهي تدخُلُ في الابتلاء بالضَّرَّاء، وإنما أفردْناها هنا؛ لأنها قد تخفى على كثير من الناس ويُرادُ بها اختبارُ الصِّدق في الإيمان فيختبرُ العبادُ بطاعة ربِّهم في الكفِّ عن المعاصي مع تمكُّنِهم منها، لا في نفس ممارستِها دلَّ على ذلك قولُ الله ﷻ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝١٦٣﴾ [الأعراف: ١٦٣].

قال ابنُ جرير ؒ: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المُحرَّم عليهم صيدُه وإخفائِه عنهم في اليوم المُحلَّل لهم صيدُه.

---

(١) (حسن) أخرجه الترمذي (٣٤٩٧)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٦٨).

(٢) «ربيع الأبرار» للزمخشري (١/ ٣٩).

(٣) «المحاضرات والمحاورات» (٣٢٦).

CamScanner مسوح بـ

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝١٦٣﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها»[1].

قال ابنُ عاشور: ﷺ «أي نمتحنُ طاعتَهم بتعريضهم لداعي العصيان، وهو وجودُ المشتهى الممنوع»[2].

وقد قرّرَ اللهُ ﷻ في آية أخرى ومع قوم آخرين، ولكنهم نجحُوا في هذا الامتحان فكانوا خيرًا من اليهود، وهُمُ المسلمون أصحابُ النبي ﷺ لما كانوا مُحرمين بعمرة الحُديبية ابتلاهم الله بالصَّيدِ وهو مُحرَّمٌ على المحرم حتى أنَّ الصيدَ اقتَرَبَ منهم فكانَ أحدُهم يستطيعُ أنْ يَصيدَهُ بيدِهِ دونَ استخدام آلة الصَّيد.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٩٤﴾ [المائدة: ٩٤].

وفي هذا الزمنِ يتكرّرُ ابتلاءٌ عظيمٌ لكنْ بشكلٍ مختلفٍ فقبلَ عشرةِ أعوامٍ تقريبًا كان الحصولُ على الصُّورِ والمقاطعِ المحرّمةِ بعيدَ المنالِ نوعًا ما، أمّا الآنَ فبلمسةٍ خفيفةٍ على شاشةِ الجوالِ أو بضغطةِ زرٍّ على الحاسبِ الآلي تُشاهدُ هذا حتى من دونِ برامجِ الحجبِ.

وقد تتعدَّدُ وسائلُ المعاصي فكنْ منها على حذرٍ وتذكّرْ: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٩٤﴾.

---

(١) تفسير الطبري (١٣/ ١٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٤٩).

صوّيا بـ CamScanner

٣- الابتلاء بالسَّرَّاء:

لا تُبطِرُ السرَّاءُ لي خُلُقًا ولا أعدو على ضرَّائها مُتخشِّعًا[1]

يَبتلي اللهُ ﷻ عَبدَهُ بالنَّعماءِ أو الخَيْرِ فِتنةً وتمحيصًا بأَنْ يُعطيَهُ المالَ أو الجاهَ أو المنصبَ أو العافيةَ ونحوَ ذلك لِيَنظُرَ أيشكُرُ أم يكفُرُ.

قال اللهُ ﷻ عن نبيِّه سليمانَ - عليه الصلاةُ والسلامُ - عندما رأى عَرْشَ بلقيس عنده: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

فقولُهُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أيْ هذا التمكينُ من حصولِ المُرادِ من فضلِ اللهِ وعطائِهِ.

وقولُهُ: ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ أي: ليختبِرني أأشكُرُ أم أجحَدُ هذه النِّعَم.

وقولُهُ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي: مَن شَكَرَ اللهَ على نعمةِ السَّرَّاءِ فإنما يشكُرُ لنفسِهِ حيثُ يزيدُهُ اللهُ ﷻ منها.

وقولُهُ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أي: ومن كفَرَ نِعَمَ اللهِ ﷻ وجحدَها فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن خَلقِهِ كريمٌ في معاملتِهِ لهم حيثُ لم يُعاجِلْهم بالعقوبةِ، بل يغفِرُ ويصفَحُ عن كثيرٍ من ذنوبِهم.

وقال اللهُ ﷻ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قال ابنُ كثيرٍ ؒ: «أيْ: نختبرُكم بالمصائبِ تارةً، وبالنِّعمِ تارةً أخرى، لننظُرَ مَن يشكُرُ ومن يكفُرُ ومن يصبِرُ ومن يقنَطُ»[2].

---

(١) محنةُ السرَّاءِ لابنِ الأبارِ (١/ ٣٩٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٢٨).

صوّبت بـ CamScanner

وعن صُهَيبِ بن سِنانٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليس ذلكَ لأحدٍ إلا للمؤمنِ إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكان خيرًا له، وإن أصابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فكان خيرًا لَهُ»(١).

صُوَرٌ من الابْتلاءِ بالسَّرَّاءِ:

١ - أَنْ يُبْتَلَى العَبْدُ بالغِنَى وكَثْرةِ العَرَضِ:

فعن عمرو بنِ عَوْفٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «... فواللهِ ما الفَقْرَ أخشَى عليكم، ولكنِّي أخشَى أنْ تُبْسَطَ عليكم الدُّنيا كما بُسِطَتْ على مَنْ كان قبلكم فتنافَسُوها كما تنافَسُوها وتهلِكَكُمْ كما أهلَكَتْهُمْ»(٢).

٢ - ابتلاؤهُ بزينةِ الدُّنيا وزَهْرَتِها:

فعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ جَلَسَ ذاتَ يومٍ على المِنْبَرِ وجَلَسْنَا حَوْلَهُ فقَالَ: «إني مِمَّا أخافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي ما يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنيا وزِينَتِهَا»(٣).

٣ - الابتلاءُ بحُبِّ الرِّياسةِ والجاهِ:

فيَطْلُبُها ويَحْرِصُ عليها فيكونُ فيها هلاكُهُ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّكُمْ ستَحْرِصُونَ علَى الإمارةِ، وستَكُونُ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٥).

(٢) رواه البخاريُّ (٣١٥٨).

(٣) رواهُ البخاريُّ (١٤٦٥).

CamScanner

نَدَامَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الفَاطِمَةُ»[١].

الابتلاءُ بالسَّرَّاءِ أَشَدُّ من الضَّرَّاءِ:

قــد يُــنْعِمُ اللهُ بــالبَلْوى وإن عَظُمَــتْ ويَبْتَلِــي اللهُ بعــضَ القــومِ بــالنِّعَمِ[٢]

الابتلاءُ بالسَّرَّاءِ أشدُّ من الابتلاءِ بالضَّرَّاءِ؛ لأنَّ القيامَ بحقوقِ الصَّبْرِ أَيْسَرُ من القيامِ بحُقُوقِ الشُّكْرِ هكذا حالُ أكثرِ الناسِ يَضْعُفُونَ أمامَ الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ بسَبَبِ المغرياتِ وتطلعاتِ النفسِ خلافًا للضرَّاءِ، فإنَّه يُحَفِّزُ قُوى الإنسانِ وطاقَتَهُ ويَجْعَلُهُ مستعدًا لمقاومةِ المصاعِبِ ويَدْفَعُهُ للافتقارِ إلى اللهِ واللُّجوءِ إليه فَيُفْرِغُ اللهُ عليه صَبْرًا، فأينَ هذا من السَّرَّاءِ كالصِّحَّةِ والثراءِ والمَنْصِبِ فكُلُّ ذلك يُغْرِي الإنسانَ ويُثِيرُ شَهْوَتَهُ وغرائِزَهُ الفطريَّةَ فتَتَطَلَّعُ نَفْسُهُ للمُغْرِياتِ والمُتَعِ الماديَّةِ وتَسْتجيبُ لها شيئًا فشيئًا من دونِ أنْ يَشْعُرَ أو يُدْرِكَ أنَّهُ واقِعٌ في فتنةٍ إلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ؛ لهذا قال عبدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ ﷺ: «ابْتُلِينا مع النبيِّ ﷺ بالضَّرَّاءِ فَصَبَرْنا، ثُمَّ ابْتُلِينا بَعْدَهُ بالسَّرَّاءِ فلَمْ نَصْبِرْ»[٣].

٤ – الابتلاءُ بالطَّاعاتِ:

ذنوبُــكَ في الطاعــاتِ وهــي كثيــرةٌ إذا عُــدِّدَتْ تَكْفِيــكَ عــن كُــلِّ زَلَّــةِ[٤]

الابتلاءُ بالطاعاتِ يَدْخُلُ في الابتلاءِ بالسَّرَّاءِ، وإنَّما أفْرَدْناهُ هنا؛ لأنَّهُ – يَخْفَى على كثيرٍ من الناسِ كما هو الحالُ في الابتلاءِ بالمعاصي.

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٧١٤٨).

(٢) ديوانُ أبي تمام (٣١٤).

(٣) (حسنٌ) أخرجَهُ الترمذيُّ (٢٤٦٤) وقال الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» (٢٠٣٦): حَسَنُ الإسنادِ.

(٤) «الكشكولُ» لبهاءِ الدينِ الهَمَذَانِي (٢/ ٤٠).

صوبا بـ CamScanner

ومن تأمَّلَ النصوصَ من الكتابِ والسُّنَّةِ التي تأمرُ بالطاعاتِ فقد عَرَفَ أنَّه مُبْتَلى البَلاءَ العظيمَ فإنْ أعرَضَ عنها فقدْ عرَّضَ نفسَهُ للهلاكِ وإنْ آمنَ ببعضٍ وكفرَ ببعضٍ فقد عرَّضَ نفسَهُ للهلاكِ - أيضًا - وإنْ أخذَها بقوةٍ وُفِّقَ وسُدِّدَ وأعانَهُ اللهُ قال اللهُ ﷻ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦)﴾ [الصافات: ١٠٤ - ١٠٦][١].

فالله ﷻ ابتلى إبراهيمَ وإسماعيلَ - عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ - بالطاعاتِ فعمل إبراهيم بالحزم فقبِلَ اللهُ فعلَهُ، وانقادَ إسماعيلُ لأمر الله فقبِلَ الله خُضوعَهُ.

اصبرْ على مَضَضِ الإدلاجِ في السَّحَرِ ... وفي الرَّواحِ إلى الطاعاتِ في البُكَرِ
إني رأيتُ وفي الأيامِ تجربةٌ ... للصَّبرِ عاقبةٌ محمودةُ الأثرِ
وقلَّ مَن جدَّ في أمرٍ يؤمِّلُهُ ... واستصحبَ الصَّبرَ إلا فازَ بالظَّفرِ[٢]

- - - - - - - - - -

(١) انظر: نضرة النعيم، (١/ ٧٢ ...).

(٢) جواهر الأدب للهاشمي (١/ ٢٦٧).

صورها بـ CamScanner

مراتب الابتلاء بالضراء

للابتلاءِ بالضَّرَّاءِ ثلاثُ مراتبَ:

المرتبةُ الأولى: التَّمحيصُ:

دلَّ على ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤١﴾ [آل عمران: ١٤١].

قال الطبريُّ رحمه الله: «يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وليختبرَ اللهُ الذين صدَّقوا اللهَ ورسولَهُ فيَبتليهم بإدالةِ المشركين منهم حتى يتبيَّنَ منهم المُخلِصُ الصحيحُ الإيمانِ من المنافقِ»[1].

المرتبةُ الثانيةُ: التَّطهيرُ:

دلَّ على ذلك حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما يُصيبُ المُسلِمَ مِنْ نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذًى ولا غَمٍّ حتَّى الشَّوكَةِ يُشاكُها إلَّا كفَّرَ اللهُ بِها مِنْ خَطاياهُ»[2].

المرتبةُ الثالثةُ: القُربُ والتَّكريمُ ورَفعُ الدَّرجاتِ:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾ [الزمر: ١٠].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَوَدُّ أهلُ العافيةِ يومَ

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٨٨).

(٢) رواه البخاري (٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٣).

صوئيا بـ CamScanner

القيامةِ حِينَ يُعطَى أهْلُ البلاءِ الثوابَ لو أنَّ جُلُودهم كانت قُرِضَتْ بالمقاريضِ مِمَّا يَرَوْنَ مِنْ ثوابِ أهْلِ البلاءِ»[1].

ويعجبني قولُ أحْمَدَ مُحَرمٍ:

على الجَمْرِ سِرْ فَهْوَ السَّبِيلُ الذي مَضَى ... عليه الأُلَى سـاروا إلـى ذلـك الحِمَـى

على الجَمْرِ سِرْ تَسْتَبْقِ نَفْسَكَ واتَّخِذْ ... عليه إلـى عليـا المراتـبِ سُـلَّمَا[2]

---

(١) (حسن) أخرجه الترمذي (٢٤٠٢)، وحسنه الألباني في (صحيح الجامع) (٥٤٨٤).

(٢) ديوان أحمد محرم (٢٦٧).

CamScanner صوّبه بـ

فضائل الابتلاء بالضراء

تفـــــــني الفــــداةُ لهـــا وبـــوحُ فـــضائلٍ   تتـــشرّفُ الأرواحُ أنْ تهـــدي لهـــا[١]

فضائلُ الابتلاءِ بالضرّاءِ جمّةٌ وسوف أقتصرُ على رحيقِ أزهارِها.

إذا مــــا ذُقْتَــــهُ عــــسلٌ مُــــصفّى   جَنَتْــــهُ النحــــلُ في عَلَــــمٍ شِــــناحِ[٢]

فمن تلك الفضائلِ ما يأتي:

١ - تحقيقُ الإيمانِ:

وثِـــقْ أنّ للإيمـــانِ بـــالحقِّ قـــوّةً   وأنّ لـــهُ في كُـــلِّ معركـــةٍ بـــدرا[٣]

ومن فضائلِ الابتلاءِ بالضرّاءِ تحقيقُ الإيمانِ.

قال الله ﷻ: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

قال ابنُ القيّمِ ﷺ: «فذكر سبحانه في هذه السورة أنه لا بدّ أنْ يمتحنَ خلقَهُ ويفتنَهم ليتبيّنَ له الصادقُ من الكاذبِ والمؤمنُ من الكافرِ ومن يشكرُهُ ويعبدُهُ ممّن يكفرُهُ ويُعرضُ عنه ويعبدُ غيرَهُ وذكرَ أحوالَ الممتحنينَ في العاجلِ والآجلِ وذكرَ أئمّةَ الممتحنينَ في الدنيا وهم الرُّسُلُ وأتباعُهم وعاقبةُ أمرِهم وما صاروا إليه وافتتحَ بالإنكارِ على مَنْ يحسبُ أنه يتخلّصُ من الامتحانِ والفتنةِ في هذه الدارِ إذا ادّعى

---

(١) المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة (٣٢).

(٢) منتهى الطلب في أشعار العرب (٣٤٥) والشاعر: ابن مقبل.

(٣) المذاهب الأدبية (٨٩).

الإيمان وأنَّ حكمتَهُ سبحانه وشأنَهُ في خلقِهِ بأيِّن ذلك وأخبَرَ عن سرِّ هذه الفتنةِ والمحنةِ وهو تبيُّنُ الصادقِ من الكاذبِ والمؤمنِ من الكافرِ وهو سبحانَهُ كان يعلَمُ ذلك قبلَ وقوعِهِ ولكنْ اقتضَى عدلُهُ وحمدُهُ أنَّهُ لا يجزي العبادَ بمجرَّدِ علمِهِ فيهم بل بمعلومِهِ إذا وُجِدَ وتحقَّقَ والفتنةُ هي التي أظهرَتْهُ وأخرجَتْهُ إلى الوجودِ فحينئذٍ حَسُنَ وقوعُ الجزاءِ عليه[1].

ولَقدْ يخفى الإيمانُ وارْقَ بما قَضَى ... به وثقْ واعلمْ أنَّ حكمتَهُ أعلى
فليسَ تَعقِلُ في الحياةِ لأنَّها ... بغيرِ الهُدى تغدو جميعًا به تصلى[2]

٣ - تقويةُ الإيمانِ بالقضاءِ والقدرِ:

تجري المقاديرُ على غَرْزِ الإبرْ ... ما تنفذُ الإبرةُ إلا بقدرْ[3]

من فضائلِ الابتلاءِ بالضرَّاءِ تقويةُ الإيمانِ بالقضاءِ والقدرِ.

فعن الوليدِ بن عبادةَ قال: دخلتُ على أبي وهو مريضٌ أتخايلُ فيه الموتَ فقلتُ: يا أبتاه أوصِني واجتهدْ لي. فقال: أجلِسوني، فلما أجلَسوهُ قال: يا بُنيَّ إنك لنْ تجدَ طعمَ الإيمانِ ولنْ تبلُغَ حقيقةَ العلمِ باللهِ ﷻ حتى تؤمنَ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ، قلتُ: يا أبتاه وكيفَ لي أنْ أعلمَ ما خيرُ القدرِ وشرُّهُ؟ قال: تعلمُ أنَّ ما أخطأكَ لم يكنْ ليُصيبَكَ، وما أصابَكَ لم يكنْ ليُخطئَكَ، يا بُنيَّ إني سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «أوَّلُ ما خلقَ اللهُ القلمُ قال: اكتبْ، فجرى في تلك الساعةِ بما هو كائنٌ إلى يومِ

---

(١) شفاء العليل (١/ [illegible]).

(٢) المدائح الأدبية (١/ [illegible]).

(٣) القضاء والقدر، للحمد ١٢٨.

القيامة...» يا بُنيّ إنْ مِتَّ ولَسْتَ على ذلك دخلت النار»[1].

قال ابنُ تيمية رحمه الله: «هذا الحديثُ دلَّتْ عليه النُّصوصُ وهو قولُ جمهورِ السَّلَفِ»[2].

قال ابنُ عثيمين رحمه الله: «على المسلمين أنْ يؤمنوا بمشيئةِ الله في عمومِ مُلْكِهِ فإنَّه ما مِن شيءٍ في السمواتِ أو في الأرضِ إلا وهو مُلْكٌ لله عز وجل ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٢٠﴾ [المائدة: ١٢٠].

وما من شيءٍ في ملكِهِ إلا وهو بمشيئتِهِ وإرادتِهِ فبيدِهِ المُلْكُ، وبيدِهِ مقاليدُ السماواتِ والأرضِ، ما من شيءٍ يحدثُ من رخاءٍ وشدةٍ، وخوفٍ وأمنٍ، وصحةٍ ومرضٍ، وقلةٍ وكثرةٍ، إلا بمشيئتِهِ عز وجل»[3].

ويعجبُني قولُ لَبيدٍ:

إنَّ تقوى ربِّنا خيرُ نَفَلْ ... وبإذنِ اللهِ رَيْثي وعَجَلْ

أحمدُ اللهَ فلا نِدَّ لَهُ ... بيديهِ الخيرُ ما شاءَ فَعَلْ

مَنْ هداهُ سُبُلَ الخيرِ اهتدى ... ناعِمَ البالِ ومَنْ شاءَ أضَلّ[4]

---

(1) (صحيح) أخرجه أحمد (5/ 317)، وأبو داود (4700) وابن أبي عاصم في «السنة» (102)، وصححه الألباني في تعليقه على السنة (102)، وقال شيخنا الوادعي رحمه الله: «حديث صحيح بمجموع الطرق كما في الجامع في القدر» (102).

(2) «مجموع الفتاوى» (8/ 273).

(3) «الفتاوى النافعة» للعثيمين (349).

(4) «الإيمان بالقضاء والقدر» للحمد (68).

ضوئيا بـ CamScanner

٣- تمحيص ما في القلوب:

رأيت قليلًا كان شيئًا ملفقًا فكشفه التمحيص حتى بدا ليا[1]

من فضائل الابتلاء بالضرّاء تمحيص ما في القلوب قال الله ﷻ ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فهل عرفت ما هو التمحيص إنّه التطهير من الذنوب والتخليص من العيوب والتنقية من دخائل الضعف والوهن بملاقاة الشدائد والصبر عليها حتى تصفو النفوس فلا يبقى فيها درن.

قال ابن القيم ﵀: «تمحيص ما في قلوب المؤمنين هو تخليصه وتنقيته وتهذيبه فإنّ القلوب يخالطها بغلبات الطبائع وميل النفوس وحكم العادة وتزيين الشيطان واستيلاء الغفلة ما يضادّ ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبرّ والتقوى فلو تركت في عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة ولم تتمحص منه فاقتضت حكمة العزيز أن قيّض لها من المحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده وإلا خيف عليه منه الفساد والهلاك»[2]

لكن نفسًا في جهادك زجّها بالحادثات حمامها وقتالها
محّصتها تمحيص أغلى جوهر في صقيل كل نقيصة ونكالها
فلتشهد الأيام بعفة نفسها ولتفخر الآفاق طول ملالها[3]

---

(١) [illegible]

(٢) زاد المعاد [illegible]

(٣) ديوان الشعر العربي [illegible]